

لماذا ازدهرت ثقافة علامات الساعة، في بنية الفكر الإسلامي؟



محمد حسن بدر الدين
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Orders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

المُلخَص:

لا تخلو ثقافة شعب أو أمة من فكرة الانتظار والنّهيات، وهي فكرة ليست بسيطة على الإطلاق، لأنها تقوم على منظومة فكرية متكاملة، تُنظر لآخر الزّمان، وتُنتج نوعاً من الأدب خاصيته التنبؤ بما سوف يحدث مستقبلاً، ضمن مفاهيم وموضوعات وتعاليم خاصّة، سُميت بأدب النّهيات، أو الفكر الأخروي.¹

وقد أطلق الكاتب البولندي ورونسكي عام 1827، على ذلك الأدب في بنية الفكر المسيحي، مصطلح (Messianisme).²

ولأننا لا نملك مقابلاً دقيقاً له في العربيّة، فنستعمل تعبير أدب النّهية، ليشمل منظومة فكرية واسعة، تعلّقت بأشراط السّاعة وعلاماتها التي جعلت نهاية الكون غير سعيدة بالمرّة. ونستخدم مصطلح «مسيحانيّة» ترجمةً لتعبير (messianisme) ذي الأبعاد الدينيّة أساساً، نظراً إلى أنّ هذا المصطلح هو من أهمّ ركائز أدب النّهية، عند كلّ من بني إسرائيل واليهود والمسيحيين والمسلمين على حدّ سواء.

وعلى الرغم من الاختلافات الجوهرية بين الثقافة الإسلاميّة واليهوديّة والنّصرانيّة، فقد انتقلت مباحث الماسيحيانيّة وأدب النّهية من التّراث الإسرائيليّ، اليهوديّ، المسيحيّ إلى العقل المسلم، وصارت من مشاغله الفكرية والعقائدية. فكيف تسرّبت تلك المباحث والآراء؟ وكيف ظهر أدب النّهية عند المسلمين، وكيف طبع ثقافتهم وشكّل عقليّاتهم؟ لا يدّعي هذا البحث الإجابة كلياً عن تلك الأسئلة وما يتفرّع عنها، ولكنّه سيعرض خلاصة تحاول أن تبيّن أهمّ المداخل الفكرية والعقائدية التي سهّلت مرور تلك المعتقدات وذلك الفكر المتعلّق بالانتظار والخلّاص، إلى فئة كبيرة من المسلمين عبر الروايات والأحاديث والتّفسير. واخترنا منها ثلاثة أمثلة تطبيقية تتعلّق بأشراط السّاعة هي: النّار والدخان وطلوع الشّمس من مغربها، نقدّم حولها قراءة نقدية على ضوء المنهج التطبيقي المقارن بين النّصوص، وفصلنا أن نمهد لها بلمحة عن أدب الانتظار، وفلسفة النّهيات في القرآن الكريم، من أجل مزيد من التّأصيل للمسألة، وتوفير مقارنة أوسع.

1- المعروف بالمصطلح الإنجليزي، الإسكاتولوجيا (Eschatology) وقد عرّفت موسوعة اليهود واليهوديّة والصّهيونيّة لعبد الوهاب المسيري هذا الأدب بأنّه: «الفكر الأخروي، ويُشار إليه في الإنجليزيّة بكلمة «إسكاتولوجي» من الكلمة اليونانيّة «إسكاتوس» ومعناها «آخر» أو «بعد». ويشير المصطلح إلى المفاهيم والموضوعات والتعاليم الخاصّة بما سيحدث في آخر الزّمان، وإلى العقائد الخاصّة بعودة الماشيخ، والمحن التي ستحلّ بالبشريّة بسبب شرورها، والصّراع النّهائي بين قوى الشرّ وقوى الخير (حرب يأجوج ومأجوج)، والخلّاص النّهائي، وعودة اليهود المنفيين إلى أرض الميعاد، وإلى يوم الحساب وخلود الرّوح والبعث، وهي الموضوعات التي تظهر أساساً في كتب الرّؤى (Apocalypse)، والتي تعود جذورها إلى الحضارات البابليّة والمصريّة والكنعانيّة، وخصوصاً الفارسيّة الزّرادشتيّة». انظر: عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهوديّة والصّهيونيّة، دار الشروق، مصر، 1999م، 252/16.

2- جوزيف ورونسكي (Joseph Wronsky) (1853-1776) رياضي وفيلسوف ورجل دين بولندي، استعمل المصطلح لأول مرّة في رسالة بعث بها إلى البابا ليون الثاني عشر، عام 1827م، ثمّ استخدمه في كتبه وعرّفه بأنّه: «الإيمان بمخلص يأتي ليضع حدّاً لواقع سيء. ويفرض نظاماً جديداً، عامراً بالعدل والسّعادة». انظر:

Guy Robert, mots et dictionnaires, vol. 108, tome. 5. Les belles lettres, Paris 1970. page. 1256.

مفهوم الانتظار وقيام الساعة في القرآن والفكر الإسلامي

نتناول في هذا المحور مبحثين هما: البحث عن أشرط السّاعة في القرآن الكريم، وعرض ما اعتبر من أشرط السّاعة: النّار والدخان وطلوع الشّمس من مغربها، باعتبارها نماذج تطبيقية، صور الفكر الإسلامي من خلالها ترقباته، وتخوفاته، وآماله الأخروية.

في معنى الانتظار:

- (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ، 158، الأنعام). (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ، 122، هود). (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ، 30، السّجدة).

تلك هي الآيات التي ورد فيها الانتظار لفظاً في صيغة الأمر: «انْتَظِرُوا، انْتَظِرْ» وفي صيغة الحال مع الاستقبال: «مُنْتَظِرُونَ». فما هو الشّيء أو الحدث الذي يأمر الله تعالى المخاطبين أن ينتظروه؟ هل هو الشّيء نفسه والحدث نفسه في الآيات الثلاث؟ في أيّ سياق ورد هذا الانتظار، ولأيّ غرض؟ وهل يمكن تجسيده في شخصية منتظرة، سوف تظهر في وقت ما؟. نبدأ مع الآية الأولى (158، الأنعام).

واضح أنّ نصّ الآية جزء من سياق كامل، وأنّها متعلّقة لفظاً ومعنى بما قبلها. وأداة الاستفهام «هل» تدلّ أنّها حجاج لجماعة دلّ عليها فعل «ينظرون» الذي ورد بمعنى «ينتظرون». يُفهم من الآية أنّ مجموعة من النّاس جادلت الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ورفضت الإيْمان بنبوّته، وبالقرآن الذي أنزل إليه، وطلبت «آية». أيّ دليلاً يستحيل على الرّسول أن يبرزه بقدراته الشخصية.

يوضّح نصّ الآية أنّ الدليل المطلوب تمثّل في أمور ثلاثة: «أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ» أي تنزل الملائكة إلى الأرض فيشاهدونها ويكلمونها، «أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ»، كذلك أن ينزل الله سبحانه وتعالى، «أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ». أي تظهر لهم ظواهر كونية غير مألوفة عند النّاس. من هم هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم فوق الجنّ والإنس أجمعين؟ واعتقدوا أنّ إيمانهم بالرّسول، سيكسب الدّين الجديد شرعيته، وأنهم يستحقّون تلك العناية، لكي يؤمنوا، أي أنّهم يمتنون على الله وعلى الرّسول إيمانهم وإسلامهم؟. الجواب يبدأ من الآية: (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، 154) ويبدأ الحجاج في الآية الموالية: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ، 155) ويأتي بعد ذلك رفض بني إسرائيل رسالة محمّد، وتبريرهم لذلك الرّفض في الآيتين (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ، 156) و(أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ، 157).

بيّن القرآن أنّ رفض بني إسرائيل الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، ليس جديداً عندهم، أو خاصاً بمحمّد لأنه عربيّ أو لأنه «أمّي»، وإنما هو مبدأ راسخ لديهم، نتيجة طبيعّية لعقلّية ترفض التّوحيد والوحي الإلهيّ، فلا حجة لهم في رفضهم الإيمان. تأتي إثر ذلك الآية (158، الأنعام). وينتقل الكلام إثرها إلى مفاهيم لا علاقة لها بالانتظار. إذن، فالجواب عن السؤال «ما هو الشّيء أو الحدث الذي يأمر الله عزّ وجلّ المخاطبين أن ينتظروه؟» موجود في الآية نفسها: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا). يُعلم الله النّاس أجمعين بحقيقتين غيبيّتين: ظهور «بَعْضُ آيَاتِ» الله، وارتباطها بنهاية التّكليف، فلن يقبل بعدها إيماناً ولا عملاً. ولم يوضّح القرآن عدد تلك الآيات ونوعيّتها وزمن ظهورها. ومن الواضح أنّه يُلغي ظهور شخص أو كائن. لأنّ الكائن أو الشّخص أيّ كان هو وأيّا كانت قدراته، ودرجة إيمانه، لا يدخل ضمن «آيات ربك». ولم يعتبر القرآن الأنبياء والرّسل بعض آيات الله.

وبما أنّ كلّ شخص إنّما يخضع لقانون التّناسل والتّكاثر، والنّاس يعرفون ذلك. فلا يمكن أن يظهر «فجأة» مخلوق من الجنّ أو الإنس أو الملائكة على الأرض باعتباره آية منتظرة. وبهذا المنطق، يعارض القرآن الكريم أنواع الدّجل والادّعاء، مخالفاً كثيراً من المرجعيّات الدينيّة التي تؤمن بالمخلّصين والمنتظرين.

والأهمّ من كلّ ذلك أنّ الآية السّابقة لا تشير إلى «فساد» عامّ في الأرض في آخر الزّمن، يشمل الدّين والأخلاق والعلم، ويعطلّ الأخذ بالأسباب، أو يلغي العمل والاجتهاد، كما يلحّ «الكتاب المقدّس» بعهديه القديم والجديد على الفساد المطلق في «آخر الزّمان» ويؤكد ويوضّحه، ويبدو أنّ المفسرين والشّراح تأثروا بثقافة أهل الكتاب، وجعلوها من مرجعيّات المتخيّل الإسلامي، في ترويج فكرة النّهيات المفجعة، في آخر الزّمان¹.

ورد في لفظ الآية السّابقة مصطلحات ثلاثة، تفسّر غرض الانتظار وهي: «أَمَنَتْ» «كَسَبَتْ» «خَيْرًا». ولئن وضعت الآية ظهور بعض آيات الله، فاصلاً لا يقبل الله بعده إيمان من لم يؤمن، ولا عمل مؤمن أفسد في حقّ نفسه، أو في حقّ غيره، فإنّ تغييب زمن ظهور تلك الآيات وتنكيرها، يهدف إلى حثّ النّاس على الإيمان، والاجتهاد والأخذ بالأسباب. فهي دعوة إلى نبذ القنوط والتّشاؤم المحبط والأمل الكاذب في «انتظار مخلص»، إذ لا يكون خلاص الفرد إلّا بما كسبت يده، لا بعمل غيره، ولا بما قد يوفّره له «كائن» غائب، أو سراب خلاب.

1- بسّام الجمل، ليلة القدر في المتخيّل الإسلامي، مؤسسة القدموس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق، 2007م. ص 59. طبّق بسّام الجمل منهجيّة ناجحة في استقراء هذه المرجعيّات في قراءته لليلة القدر، وكان بالإمكان متابعتها في قراءتنا لأشراط الساعة، ولكنّ طبيعة البحث لم تسمح بذلك.

أقوال بعض المفسرين حول الآية 851، من سورة الأنعام

(1) قول الفخر الرازي (543-606هـ/1149-1209م)

«أنزل الله الكتاب إزالةً للعدو وإزاحةً للعلّة، وبيّن أنّهم لا يؤمنون بالنبّة. وشرح أحوالاً تُوجب اليأس عن دخولهم في الإيمان. فقال: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ). ومعنى ينظرون، ينتظرون، وهل استفهام، معناه النفي. وتقدير الآية: أنّهم لا يؤمنون بك، إلا إذا جاءهم أحد هذه الأمور الثلاثة، وهي: مجيء الملائكة أو مجيء الرّب، أو مجيء الآيات القاهرة من الرّب، أو يأتي بعض آيات ربك وهو المعجزات القاهرة. ثم قال تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ). أجمعوا على أنّ المراد بهذه الآيات علامات القيامة. والمعنى أنّ أشراف الساعة إذا ظهرت ذهب أو ان التّكليف عندها، فلم ينفع الإيمان نفساً ما آمنت قبل ذلك.»²

أقم الرازي فكرة علامات الساعة إقحاماً، ونسب إليها إجماعاً مجهولاً، تأثراً بما ورد عند عدد من الرواة قبله، وليس تحقيقاً منه أو استنباطاً.

(2) قول أبي زيد الثعالبي (786-876هـ/1384-1471م)

«قوله سبحانه: (هَلْ يَنْظُرُونَ) أي ينتظرون، يعني العرب المتقدّم الآن ذكرهم. وأجمعوا على أنّ المراد بهذه الآيات علامات القيامة. وقوله سبحانه: (أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) قال مجاهد وغيره: هي إشارة إلى طلوع الشمس من مغربها؛ بدليل التي بعدها. ويصح أن يريد سبحانه بقوله (أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) جميع ما يُفطع بوقوعه من أشراف الساعة ثم خصّ سبحانه بعد ذلك بقوله: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) الآية التي ترتفع التوبة معها. وقد بيّنت الأحاديث الصّاح في البخاريّ ومسلم أنّها طلوع الشمس من مغربها.»³

نلاحظ في تفسير الثعالبي أنّه أحال على الأحاديث لإثبات أشراف الساعة، ولم يستخرج ذلك من الآية. وهذه معضلة الإسقاط في كثير من التّفسير القديمة والحديثة، في استدعائها لمفاهيم وسندات من خارج النصّ القرآني.

(3) قول محمد الطاهر بن عاشور (1296-1393هـ/1879-1973م)

«من جملة آيات الله، الآيات التي جعلها الله عامّة للنّاس، وهي أشراف الساعة، والتي منها طلوع الشمس من مغربها حين تُؤذن بانقراض نظام العالم الدنيوي. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول

2- الرازي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م. 7/24

3- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، بيروت، 1418هـ.

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقوم الساعة حتّى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»⁴.

نلاحظ أيضاً أنّ الشّيخ الطّاهر بن عاشور، لم يستنبط أشراف الساعة من الآيات، وإنّما من روايات المحدثين أمثال البخاري ومسلم.

(4) قول إبراهيم القطان (1334-1404هـ/1916-1984م)

«بعد أن بيّن الله تعالى، أنّه إنّما أنزل الكتاب إزالةً للعدر وهدى ورحمة للنّاس، بيّن هنا أنّه لا أمل في إيمان هؤلاء المعاندين. ماذا ينتظرون؟ لقد قامت الحُجّة على وجوب الإيمان ولم يفعلوا! فماذا ينتظرون؟! هل ينتظرون أن تأتيهم الملائكة رسلاً بدل البشّر؟ أو ينتظرون شاهدين على صدقك؟ أو أن يأتيهم ربّك ليروه عياناً أو يشهد بصدقك؟ أو أن تأتيهم بعض علامات ربّك لنفس الغرض؟ ثمّ يشير إلى تماديهم في تكذيب آيات الله، وعدم اعتدادهم بها، وأنّه لا أمل في إيمانهم البتّة. (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا): وعندما تأتي علامات ربّك، ما تلجئهم إلى الإيمان، لن ينفعهم إيمانهم حينئذٍ، إذ يكون قد فات الأوان وانتهت مرحلة التّكليف»⁵.

هي نماذج تفسيرية من القديم والحديث، لا تفصل مجمل أقوال العلماء في المسألة المطروحة، ولكنها تجمل أهمّ الأقوال والاتجاهات الفكرية في التفسير عامّة دون التّفصيل والتّفريع والإسهاب في الشّرح اللّغوي أو في تجميع «ذكر من قال هذا» أو في الافتراضات والاحتمالات. نلاحظ من التّفاسير السابقة ما يأتي:

- ذكر الرّازي والقطان القرآن الكريم باعتباره أولى الحجج، وأيّ حجة من الله على عباده هي آية من «آيات ربّك».

- لم يرد ذكر «أشراط الساعة العشرة» إلاّ عند الرّازي. بينما ركّز الثّعالبي على قول مجاهد وغيره، «إشارة إلى طلوع الشمس من مغربها»، ولم يتّضح لنا قول الثّعالبي: «ويصحّ أن يريد سبحانه جميع ما يُقَطّع بوقوعه من أشراف الساعة» دون توضيح أو تقديم مثال. أمّا الشّيخ ابن عاشور فقد أوضح رأيه الشّخصي وأطال فيه، وعند وصوله إلى أشراف الساعة اكتفى بطلوع الشمس من مغربها، باعتبارها من جملة آيات الله، التي جعلها عامّة للنّاس.

يمكن أن يستنتج من تلك المواقف الأربعة، أنّ ثلاثة لا يقولون بالأشراط التسعة الباقية. هذا رأي لا يجزم بأنّ العلماء الثلاثة الثّعالبي وابن عاشور والقطان، لا يعتقدون في كلّ أشراف الساعة الواردة في الحديث ولا

4- محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، 5/202

5- إبراهيم القطان، تيسير التفسير، تحقيق: عمران أحمد أبو حجلة، الطبعة الأولى، عمّان، 1404هـ، 1983م، 2/26

أنهم يعتقدون. فذلك أمر يخصهم، ويحتاج إلى تجميع كل ما قاله أحدهم لإمكانية الجزم. ولكن، هل حقاً يمكن تأويل الآية: (158، الأنعام) على أن المراد بهذه الآيات علامات القيامة، بمعنى أنه سوف تحدث ظواهر متعدّدة تعلن مسبقاً عن اقتراب يوم القيامة ولا تقوم الساعة إلاّ بعدها بزمان؟ أم أنّ (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) هو نفسه يوم القيامة وأنّ كل ما يقع من العلامات، إنّما يحدث في ذلك اليوم المهلول؟ قد يتضح كل هذا مع الآية (122، هود). يكفي أن نقرأ هذه الآية في سياقها: (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، 121، وَاَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ، 122، وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. 123، هود).

هناك ارتباط وثيق بين الإيمان والعمل والانتظار والغيب، لا يمكن فصله أو تجزئته، فقد ورد العمل بالصيغ نفسها التي ورد فيها الانتظار، وحصل الرّبط بينهما مباشرة: «اعْمَلُوا- وَاَنْتَظِرُوا» «إِنَّا عَامِلُونَ- وَإِنَّا مُنْتَظِرُونَ» وإثرها مباشرة، يُذكر الغيب: «وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

كيف يقرب هذا الحثّ الصّريح على العمل ضمن مساق الإيمان بالله وضمن الانتظار الإيجابي، إلى انتظار الكساد والخمول والرّكود والإحباط؟ ولماذا وجّه الخطاب للذين لا يؤمنون عوضاً عن الذين يؤمنون؟ لأنّ الفارق الجوهريّ الوحيد بين الفريقين هو الانتظار. فالذين لا يؤمنون، لا ينتظرون شيئاً أكثر ممّا يكسبونه من عملهم الدنيويّ، ويرجعون سبب كسبهم إلى جهودهم العقلية والبدنية وإلى مراتبهم الدنيوية، فلا يعترفون بفضل الله عليهم ولا ينتظرون رحمته في دنياهم، ولا بعد موتهم، إذ هم لا يؤمنون بحتمية البعث والحساب بين يدي الله. والذين يؤمنون ينتظرون الكثير: ينتظرون رحمة الله بهم في الدنيا، وعفوه ومغفرته في الآخرة. فكلّ «يَعْمَلُونَ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ». ويأتي توضيح هذا المنهج: (فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)، وقد تكرر معنى العمل أكثر من معنى الانتظار.

فالقرآن لا يجعل من الانتظار أساساً ولا ركيزة ولا عقيدة، لأنّه أمر بديهيّ عند الفرد والمجموعة، كلّ ينتظر شيئاً ما، وإنّما يجعله نسقاً واضحاً، وهو حتمية البعث والحساب، لمواصلة العمل إلى أن «تظهر بعض آيات ربك» على الأقلّ. وللمرّة الثالثة يأتي توضيح مفهوم «الانتظار» في الآية (30، السجدة). فهذه الآية تأتي في السياق الذي وردت فيه الآية (158، الأنعام)، في الحجاج القرآنيّ لبني إسرائيل بتغيير الحجج في الآيتين 26 و27 وبعد ذلك نجد: (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ، 28، قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ، 29، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَاَنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ. 30، السجدة).

نلاحظ توافقاً بين هذه الآيات والتي سبقت، وتغييراً لفظياً في التعبير القرآنيّ. تغيّرت طلبات بني إسرائيل إذ سألوا: (مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ). فما هو الفتح؟ يجيب القرآن: (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ). إذن يوم الفتح هو يوم يأتي بعض آيات ربك، بما أنّه في ذلك اليوم: (لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ). بقي أن نعرف هل أنّ «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ»، أو «يوم الفتح»،



في السياقات القرآنيّة هذه، هو إعلان عن أشراف السّاعة؟ وهل هو مقترن زمنياً بيوم القيامة اقتران السّبب بنتيجته دون فاصل زمنيّ؟ وماذا بعد ذلك اليوم إن وجد الفاصل الزمنيّ؟.

يبدو، حسب النّصّ القرآنيّ أنّ «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ» هو حجّة الله الأخيرة والبالغة على النّاس، إذ بذلك «البعض من آيات الله» يقتنع كلّ من وجد وقتها، وهو بالغ عاقل راشد، بأنّ القيامة قائمة لا محالة مهما طال الزّمن بعد ظهور الآيات، ويوقن بحتميّة البعث والحساب، لذلك يؤمن من لم يؤمن، ويقنع المؤمن عن الفساد والإفساد ويتوب.

ورفض إيمان المشرك وتوبة المؤمن في ذلك الوقت ليس عقاباً، ولا إغلاقاً لأبواب رحمة الله التي وسعت كلّ شيء، منذ بدء الخلق إلى نهايته. وإنّما لسبب وحيد، وهو: أنّ أولئك المؤمنين والتّائبين الجدد، آمنوا عن إكراه، ولم يؤمنوا بالغيب كما هو مطلوب من الذين سبقوهم. فلا هم تدبّروا كلام الله، ولا هم استغلّوا عقولهم لتوصلهم إلى الله، ولا هم تساءلوا عن معنى وجودهم في هذه الحياة. فإيمانهم أو توبتهم كان اضطراراً لا اختياراً. وكان نتيجة ظواهر دالّة بذاتها، لا نتيجة تفكير.

ولكنّ هذا ينطبق على البالغ العاقل الراشد، فما وضع الذين ولدوا وقتها، وخاصة الذين بلغوا وعقلوا ورشدوا مع ظهور تلك الآيات أو بعدها؟ الجواب في القرآن. وهو يتكرّر مراراً حتّى لا يغفل عنه كلّ من يقرؤه، لتأكيد أمرين متلازمين: حتميّة القيامة والحساب، والعدل الإلهي: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، 281، البقرة). (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، 25، آل عمران). (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا، 49، النساء) (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، 44، يونس). (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، 69، الزّمر).

ربطت المقاطع القرآنيّة بين قيام السّاعة وبين العدل الإلهي، وأكدت أنّ السّاعة تأتي بغتة. فظهور تلك الآيات يكون بغتة أيضاً. فما هي تلك الآيات؟ يجيب القرآن الذي نزل في مكّة بعدد السّور، كالزّلزلة والقارعة والنّبأ والغاشية، وبالآيات التي تعرض مشاهد محسوسة ليوم القيامة نفسه، مثل دكّ الجبال ونسفها، ومثل طيّ السّماوات والأرض. إذن، لا ينصّ القرآن على أشراف السّاعة بمعنى حدوث ظواهر كونيّة، تتجاوز ما اعتادت عليه المخلوقات، من زلازل وفيضانات وأوبئة وأمراض جديدة وسيادة الكفر، والظلم والفساد في العالم، ويكون ذلك إعلاناً ليوم القيامة. وإن كان كلّ ذلك وغيره يدخل ضمن التّذكير بالقيامة والتّنبية إلى حتميتها وتقريب مفهومها إلى النّاس، لأنّ كلّ تلك الظواهر الطّبيعيّة هي صورة مصغّرة على قدر حجم الأرض، وطاقة من عليها لما سوف يقع. ولكن، ألم يرد التّركيب الإضافيّ أشراف السّاعة في القرآن؟.

مفهوم أشراف السّاعة:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ، 18، محمّد).
ليس في القرآن إلا تلك الآية، وردت فيها «أشراطها»، أي أشراط الساعة. والنص يؤكد أن أشراط الساعة جاءت، أي ظهرت وما زالت تظهر وتتجلّى، منذ بُعث محمّد إلى يوم القيامة. وضّح إبراهيم القطان في تيسير التفسير هذا المعنى الإسلامي، فقال: «عنّف الله أولئك المكذّبين، وأكد أنّهم لم يتعظوا بأحوال السّابقين، وعليهم أن يتوبوا قبل أن تأتيهم الساعة بغتة، وقد بدت علاماتها بمبعث محمّد صلّى الله عليه وسلّم. ففي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «بُعثت أنا والسّاعة كهاتين»، وأشار بإصبعيه السّبابة والتي تليها. ولا ينفعم شيء إذا جاءتهم السّاعة، كما قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) الفجر، 23».6

في الأدبيات الإسلاميّة أنّ البعثة المحمديّة ونزول القرآن من أهمّ تلك الأشرط، ولكن لا علاقة لها بموضوع الانتظار. أمّا اكتشاف قوانين الله في الكون وفي الإنسان والطبيعة، فقد اعتبرها القرآن آيات كونيّة تكشف الحقّ وتبني اليقظة الدائمة. وهي نقيض الغفلة: (سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، 53، فصلت). ولكن، ما حقيقة أشراط السّاعة الأخرى، التي وإن لم ترد في القرآن، فقد ملأت كتب الحديث والتفسير؟

حول إمكانية ظهور علامات قبل يوم القيامة:

أولاً ما معنى أشراط السّاعة في كتب الحديث والتفسير؟ جاء في كتاب: عمدة القاري شرح صحيح البخاري أنّ: «أشراط السّاعة بفتح الهمزة أي علاماته، وهو جمع شرط بفتح الشين والراء (لا شرط) وبه سميت شرط السلطان، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها». أمّا ابن حجر في فتح الباري فيضيف التّصنيف إلى التّعريف، فيقول: «أشراط السّاعة أي علاماتها. منها ما يكون من قبيل المعتاد، ومنها ما يكون خارقاً للعادة».7

هذا شرح عامّ ومبهم يستند على الحديث الذي يقول: «بُعثت أنا والسّاعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدّهما» الذي توضّحه رواية أخرى تقول: «قال بأصبعيه هكذا الوسطى والتي تلي الإبهام. وقال: بُعثت أنا والسّاعة كهاتين». مدّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم السّبابة والوسطى مقترنتين دالاً على أنّ مبعثه وقيام السّاعة لا فاصل زمنيّ بينهما.8

6- تفسير القطان، مرجع سابق، 3/243

7- بدرالدين العيني (ت: 855هـ) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م، 210/15

8- سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد محمّد شاكر وآخرون، بيروت، 1988م، 4/495. وانظر: صحيح البخاري: 8/105، والمطالب العالية لابن حجر، 13/17، والقدر للفرياني، 1/408، والفتن للنعيم بن حماد، 2/648

والزّمن هنا في بعده الكونيّ وليس في بعده البشريّ. فإذا انطلقنا من بداية الخلق وظهور الكون، فقد مرّ من عمر الكون ما يُحسب بالمليارات من السّنين حسب نظريّة الانفجار العظيم (théorie du big bang). وإذا اكتفينا بظهور الإنسان أو بمخلوق أقرب ما يكون إلى مواصفات الإنسان وخصائصه، فإنّ ذلك يحسب بملايين السّنين. فالمسألة بعيدة عن مفهوم أشراط السّاعة، وإنّما تشير إلى الزّمن المديد، الذي مرّ على خلق الكون والإنسان، وربّما كان ما مرّ منه أكثر بكثير ممّا بقي.

هذا يدعو إلى توضيح الفرق الكبير بين المفاهيم القرآنيّة في أشراط السّاعة من جهة، وبين ما غرسته مصنّفات الحديث وشروحه من مفاهيم ومضامين، أكّدها ودافعت عنها، من جهة ثانية. «عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ مَقْدَمَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ. فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ. قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَحْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَنِي بِهِنَّ أَنِفًا جَبْرِيْلُ أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيَاذَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا. قَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ.»⁹

ننطلق من هذا النّصّ نظرًا لأهمّيته من حيث شخصيّة السّائل أوّلاً، ولأنّه ينصّ على ترتيب في أشراط السّاعة ثانيًا. السّائل هو عبد الله بن سلام: صحابي، هو أوّل من أسلم من الثّمانية أو التسعة أفراد من اليهود على عهد الرّسول. وكان ذلك في بداية الهجرة. كان من أبحار اليهود أي من علمائهم في مباحث الحديث والفقه والعقيدة. سؤاله: «إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ». غريب، فعن أيّ نبيّ يتحدث؟ ومن أين علم عبد الله بن سلام أنّ تلك المسائل الثّلاث كان يعرفها نبيّ، أو كلّ الأنبياء؟ اليهود لم يؤمنوا فعليًا بأيّ نبيّ من أنبياء الله قطّ. فهم ليسوا من أتباع موسى، ولا هم يعترفون برسالته. ظهرت اليهوديّة في القرن السّادس قبل المسيح. وهم يؤمنون بمن اعتبرهم «العهد القديم» أنبياء مثل: عزرا (عزير) ونحميا ودانيال وحزقيال وعاموص.¹⁰

فإن وجد عبد الله بن سلام الجواب عمّا سأل في التّلمود، فلا علاقة له بأنبياء الله ورسالته، وإنّما هي خرافات الكهنة والكتبة والأحبار. فهل قال الرّسول ما نسب إليه؟ وأيّ حوت هو، وأيّ زيادة في كبده؟ قال ابن حجر، في فتح الباري، شارحًا ألفاظ هذا الحديث العجيب: «الرّيّادة هي القطعة المنفردة المعلقة في الكبّد، وهي في المطعم في غاية اللذّة، ويقال إنّها أهنأ طعام وأمرأه، ووقع في حديث ثوبان أنّ تحفتهم حين يدخلون الجنّة زيادة كبّد النّون، والنّون هو الحوت ويقال هو الحوت الذي عليه الأرض والإشارة بذلك إلى نفاذ الدّنيا،

9- البخاري، الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النّجاة، م. ع. س. الطبعة الأولى 1422هـ. 132/4. وانظر أيضًا في شرح مصطلح أشراط السّاعة: لسان العرب، 7/ 329، والنّهاية لابن الأثير، 2/ 460

10- محمّد علي البار، المدخل لدراسة التّوراة والعهد القديم، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، 1410/1990م. 95/1

فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ زِيَادَةَ وَهِيَ: أَنَّهُ يُنْحَرُ لَهُمْ عَقِبَ ذَلِكَ نُونَ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَشَرَابُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَيْنِ تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا. وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَنْطَحُ الثَّوْرُ الْحُوتَ بِقَرْنِهِ فَتَأْكُلُ مِنْهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَحْيَا فَيَنْحَرُ الثَّوْرَ بِذَنْبِهِ، فَيَأْكُلُونَهُ ثُمَّ يَحْيَا فَيَسْتَمِرُّانِ كَذَلِكَ. وَهَذَا مُنْقَطِعٌ ضَعِيفٌ»¹¹

أما العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري، فيشرح الحديث ويقدم إضافات: «قوله أشراف الساعة. أي علاماتها، وهو جمع شرط بفتح الراء، وبه سميت شرط السلطان، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يعلمون بها هكذا قال أبو عبيد. وحكى الخطابي عن بعض أهل اللغة، أنه أنكر هذا التفسير. وقال أشراف الساعة ما ينكره الناس من صغار أمورها قبل أن تقوم الساعة. وفي دلائل النبوة للبيهقي: سأله عبد الله بن سلام عن السواد الذي في القمر بدل أشراف الساعة»!!.

مدار النصّ كلّ حول أساطير الأولين، وخرافات بني إسرائيل. وبغض النظر عن صحّة تلك الروايات أو وضعها، ننظر في توصلها، إذ لا بدّ أن تذكر بقية أشراف الساعة وعددها وترتيبها.

خلاصة لأشراط الساعة في كتب الحديث وشروحا:

ورد في المسند الصحيح للإمام مسلم، الحديث الآتي: «عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ. فَقَالَ مَا تَذَكَّرُونَ؟ قَالُوا نَذَكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرُونَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ. فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ. تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»¹².

تلك هي الرواية المؤسسة لعدد آيات الساعة العشر. وليس هذا العدد «عشر» من المتفق عليه بين الرواة والمصنّفين. فمن ركّز على تلك الرواية من المحدثين: «مسلم وابن حنبل وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والطيالسي عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري» حسب ما ذكر السيوطي في الجامع الكبير. ولكن، ما تصنيف تلك الرواية ودرجتها، حسب تقسيمات المحدثين؟ هل هي حديث نبوي أم قول صحابي أم قول تابعي؟

نعود إلى مسلم في المسند الصحيح: «عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ، قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غُرْفَةٍ، وَنَحْنُ أَسْفَلَ مِنْهُ. فَاطَّلَعَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: مَا تَذَكَّرُونَ؟ قُلْنَا السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرَ آيَاتٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَالدُّخَانُ وَالدَّجَالُ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ وَيَأْجُوجُ

11- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ/1959م، 7/273

12- صحيح مسلم، حديث رقم: 5162



وَمَا جُوجٌ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنِ تَرْحَلُ النَّاسَ. قَالَ شُعْبَةُ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ رُفَيْعٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، لَا يَذْكُرُ النَّبِيَّ. وَقَالَ أَحَدُهُمَا فِي الْعَاشِرَةِ نُزُولُ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ. وَقَالَ الْأَخْرُ وَرِيحٌ تُلْقِي النَّاسَ فِي الْبَحْرِ. وَحَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ فُرَاتٍ، قَالَ سَمِعْتُ: أَبَا الطُّفَيْلِ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِي غُرْفَةٍ وَنَحْنُ تَحْتَهَا نَتَحَدَّثُ. وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِمِثْلِهِ. قَالَ شُعْبَةُ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: تَنْزِلُ مَعَهُمْ إِذَا نَزَلُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا. قَالَ شُعْبَةُ: وَحَدَّثَنِي رَجُلٌ هَذَا الْحَدِيثَ: عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ وَلَمْ يَرْفَعْهُ، قَالَ أَحَدُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ نُزُولُ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَالَ الْأَخْرُ رِيحٌ تُلْقِيهِمْ فِي الْبَحْرِ. عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ بِنَحْوِهِ قَالَ: وَالْعَاشِرَةُ نُزُولُ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ. قَالَ شُعْبَةُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ». ¹³

فالنَّصَانِ الْوَارِدَانِ عِنْدَ مُسْلِمٍ، وَعِنْدَ كُلِّ مَنْ اعْتَمَدَهُمَا فِي السَّنَدِ وَالْمَتْنِ لَيْسَا حَدِيثًا نَبَوِيًّا، وَإِنَّمَا هُوَ

كَلَامٌ مِنْ حَدِيثٍ بِذَلِكَ، وَسَوَاءٌ كَانَا مِنَ الْمُرْسَلِ أَوْ الْمَوْقُوفِ، فَإِنَّهُمَا يَحْمَلَانِ تَنْوِيحَاتٍ مُضْطَرِبَةً حَوْلَ مَفْهُومِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ. نَقَرْنَا الْمِثَالَ الْآتِي الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ: «عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لِيُحَجَّجَنَّ النَّبِيُّتُ وَلِيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. تَابَعَهُ أَبَانُ وَعِمْرَانُ عَنْ قَتَادَةَ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنْ شُعْبَةَ قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُحَجَّجَنَّ النَّبِيُّتُ. وَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ». ¹⁴

هَذَا النَّصُّ الَّذِي أوردَهُ الْبُخَارِيُّ فِيهِ الْحَدِيثُ وَنَقِيضُهُ، بِحُكْمِ اخْتِلَافِ الرِّوَاةِ فِي السَّرْدِ وَالْفَهْمِ: فَمِنْ نَاحِيَةِ أُولَى: لِيُحَجَّجَنَّ النَّبِيُّتُ وَلِيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَمِنْ نَاحِيَةِ ثَانِيَةِ: لَا يُحَجَّجَنَّ النَّبِيُّتُ. وَيَبْدُو أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ أَنَّ ظَهْرَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، يَقَعُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنْ وَقَعَ، وَلَا يَقْطَعُ الْحَجَّ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ سِوَا حَجِّ النَّاسِ بَعْدَهُ أَوْ لَمْ يَحْجَّوْا، إِذْ أَدَاءُ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ أَمْرٌ فَرْدِيٌّ تَسْمَحُ بِهِ أَوْ تَمْنَعُهُ ظُرُوفٌ عَدِيدَةٌ، مِثْلُ انْحِلَالِ الدَّوْلَةِ وَانْعِدَامِ الْأَمْنِ، كَمَا حَصَلَ عِنْدَ ظَهْرِ الْقَرَامِطَةِ أَوْ بِسَبَبِ انْتِشَارِ الْقَحْطِ وَالْمَجَاعَاتِ وَالْأُوبَةِ.

إِذَا نَظَرْنَا فِي مَصْنَفَاتِ الْحَدِيثِ وَشُرُوحِهَا، فَإِنَّا لَا نَجِدُ عَشْرَ آيَاتٍ أَوْ عَشْرَةَ أَشْرَاطٍ لِقِيَامِ السَّاعَةِ. بَلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذِهِ بَعْضُ الْأَمْثَلَةِ عَنِ الْبُخَارِيِّ: «بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ. حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ أَيْنَ أَرَاهُ السَّائِلَ عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ فَإِذَا ضُيِّعَتْ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ: إِذَا وَسَدَّ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ». «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيُنْبِتَ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيُظْهَرَ الزَّانَا». «قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّهَا». «قَالَ النَّبِيُّ: إِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا يَنْتَعِلُونَ نِعَالَ الشَّعْرِ وَإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا عَرَاضَ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وَجُوهُمْ الْمَجَانُ الْمُطْرَقَةَ». «عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي فِئَةٍ مِنْ أَدَمَ فَقَالَ: اْعُدُّ سِتًّا بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ: مَوْتِي ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ مَوْتَانِ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقَعَاصِ الْعَنْمِ ثُمَّ اسْتِيفَاضَةَ الْمَالِ حَتَّى

13- صحح مسلم، حديث رقم: 5163

14- صحح البخاري، حديث رقم: 1490

يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَطَّلُ سَاحِطًا ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا».

تلك بعض الروايات الواردة في: «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه» كما سماه مصنفه البخاري. وقد توسّع الشّارحون في أشرّاط السّاعة. وهذه خلاصة لأهمّ ما ذكر في ذلك عند أشهر شراح كتب الأحاديث وهم: ابن حجر والنووي وابن بطّال والعيني: «قَالَ الْمُهَلَّبُ إِنَّ الْغُدْرَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَثْرَةُ شُرْبِ الْخَمْرِ، مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِالْمَسْجِدِ لَا يُصَلِّي فِيهِ وَأَنْ لَا يُسَلِّمَ إِلَّا عَلَى مَنْ يَعْرِفُهُ، مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَتَدَفَعَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ الْإِمَامَةَ فَلَا يَجِدُونَ إِمَامًا يُصَلِّي بِهِمْ، وَعَدَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ تَطْوِيلَ الْمُنَابِرِ مِنَ الْبَدْعِ الْمَحْدَثَةِ مِنْهُمْ ابْنَ بَطَّةَ، مَوْتَ الصَّالِحِينَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ، مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَثْرَةُ الْجَهْلِ وَقَلَّةُ الْعِلْمِ وَفَسَادُ الْأَعْمَالِ بِظُهُورِ الْعُقُوقِ وَالِاسْتِهَانَةِ بِبَيْعِ مَا لَا يَجُوزُ بَيْعُهُ، مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ».¹⁵

أمّا إذا أضفنا ما ورد في روايات، اعتبرت عند هؤلاء الشّراح، ضعيفة أو موضوعة، فإنّ عدد أشرّاط السّاعة يصبح مهولاً. والواقع أنّ كتب الحديث لا تذكر من أشرّاط السّاعة عشرة، وإنّما المئات والآلاف. وما تلك العشرة إلاّ انتقاء من قبل الرواة والمصنّفين لما طابق أفهامهم أو تصديقاً وتمشياً مع أقوال شيوخهم، أو تمثلاً لما سمعوه عن أخبار بني إسرائيل، واعتبروه مادة تاريخية ودينية موروثية، فحاولوا إعادة تفسيرها وتطويرها وفقاً لسياق عصرهم ومشاكلهم الدينية والفكرية الجديدة، وهنا ارتبطت المرجعية التّوراتية مع الإضافة والتضخّم، باعتبارها من آليات إنتاج المتخيّل الإسلامي.¹⁶

ومن هؤلاء الرواة من اكتفى بثلاثة أو جعلها من أهمّ الأشرّاط. مثال ذلك ما ورد في مسلم والترمذي عن أبي هريرة: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض».¹⁷

نتجاوز الترتيب ذاته والاختلاف في أوّل أشرّاط السّاعة لنهتّم بعدها. هو عشرة في معظم الروايات. ولكنّ هذا العدد لا يصحّ ولا يستقيم أبداً. فإذا جمعنا ما ورد في الروايات السابقة من أشرّاط السّاعة واكتفينا بذلك وجدنا: «طلوع الشمس من مغربها، خروج الدّابة، خروج يأجوج ومأجوج والدّجال وعيسى ابن مريم، الدّخان، ثلاثة خسوف، نار تخرج من اليمن، أو المشرق». هي ستّة (06) وليست عشرة (10) لأنّ خروج

15- ابن بطّال (ت: 449هـ) شرح صحيح البخاري، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الثانية، الرّياض، 1423هـ/ 2003م. 164/1

16- بسّام الجمل، ليلة القدر، ص 87. سبق ذكره.

17- مسلم بن الحجاج (ت: 261هـ) المسند الصحيح، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م. 137/1

يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى بن مريم، كله يحدث في وقت واحد، ولا يحدث أحدها دون الآخر. فلننظر الآن في أهم تلك الأشراف، بنوع من التدقيق والتحليل.

نار تخرج من عدن

«أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَخْشُرُ النَّاسَ مِنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ»¹⁸.

هذا الشرط لم يرد في القرآن الكريم. والنص واضح في لفظه ومضمونه، ويرشد إلى ضابط زمني معتبر، وهو أن كل ما اعتبر قبل هذه النار، لا يكون من العلامات الدالة على يوم القيامة، فلا أهمية لكل ما ذكر من علامات أخرى، إلا باعتبارها أحداثاً عادية تظهر وتختفي في كل المجتمعات البشرية، منذ الأزل، ولا تخص المسلمين. وبعبارة أخرى، فإن ذكر أول أشراط الساعة، يجعل النص قابلاً لوجهين من المعنى: واحد ومتعدد أو مفرد وجمع. واحد يمكن الاقتصار عليه كقولنا: أول أعمال الفكر الاجتهاد. ومتعدد لجمع معين لأشراط، وفي المعنيين يتأكد مفهوم اقتران تلك النار بالتمهيد ليوم القيامة، إذ لا يكون الزمن بين السبب ونتيجته، ولا بين علامة حدث وتحققه إلا قصيراً، لا يتجاوز الأيام أو الشهور. وهذا مخالف لما ورد في القرآن عن موعد الساعة ومناقض له. فالقرآن يقول: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (سورة الأعراف) (187)).

ومن ناحية أخرى لا يوضح النص أين ستظهر تلك النار من المشرق، وإلى أي مكان من المغرب ستوجه إليه الناس. ولكننا نجد لدى البخاري رواية زادت المسألة بعض المعطيات، ولكنها لم تجب عن السؤال المطروح: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يُخْشِرُ النَّاسَ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةَ عَلَى بَعِيرٍ وَأَرْبَعَةَ عَلَى بَعِيرٍ وَعَشْرَةَ عَلَى بَعِيرٍ وَيَخْشِرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارَ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا وَتَبِيَّتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَصَبَّحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا»¹⁹.

لم يأت البخاري بالجواب، لأن النص لا يزيد النار وضوحاً، إلا أنها تدفع «بَقِيَّتَهُمُ»، لا كل الناس كما ورد في السياق، وأنها تقوم بدور الحراسة، إذ هي تلازم تلك «البقية» وتركت الآخرين وشأنهم يسافرون على ظهور الجمال في تعاون وتزاحم، نظراً لقلّة المواصلات، إذ لا يوجد وقتها لا خيل ولا بغال ولا أحمر، ولا اخترعت السيارة والطيارة والقطار والصاروخ، أو لعل أزمة الطاقة أو نفاذها، أعادت الناس إلى الإبل.

18- محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، 10/36. وانظر: كنز العمال، 14/344، وجامع الأصول للجزري، 10/387

19- البخاري، المسند الجامع، حديث رقم: 6041، سبق ذكره.

وطبعًا لا يكون الناس في حاجة إلى ماء وطعام في ذلك «الحشر». نسي الراوي أن يوضح هل هذا هو «الحشر» في المفهوم القرآني الذي لا أثر فيه لنار ولا لبعير، أم هو حشر أولي يعدّ الناس للحشر الحقيقي.

والمحير حقًا هو حرف «من» أي أن نارًا تتكوّن في عدن، ثم تتحرّك وتنتقل من عدن ولا ندري أيّ وجهة تأخذ، ولا أيّ مسافة تقطع، ولا ماذا تفعل ولا متى تخدم. لو ورد الحرف «في» فربّما أولت النار باندلاع بركان أو بانفجار محطة نفطيّة فيجلى السكّان كما هو معتاد. ولكن تلك النار لن تكون ظاهرة لكلّ الناس، إذ لن يراها إلا سكّان عدن وأحواها كلّهم أو بعضهم، فهي ليست من باب: «يوم يأتي بعض آيات ربك» التي سوف يراها ويعيشها كلّ سكّان الأرض، فكيف ستصل النار من عدن إلى القارة الأمريكيّة وإلى الصّين وإفريقيا؟

رأي ابن حجر العسقلاني (773-852هـ/1372-1448م)

توسّع ابن حجر في الحديث عن كفيّة الحشر، فخصّص له مبحثًا تحت عنوان: باب كيف الحشر، استعان فيه بأقوال القرطبي: «قال القرطبي الحشر الجَمْع وهو أربعة: حشران في الدنيا وحشران في الآخرة. فالذي في الدنيا أحدهما المذكور في سورة الحشر في قوله تعالى: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) والثاني: الحشر المذكور في أشراف الساعة الذي أخرجهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ رَفَعَهُ: إِنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَهُ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عِنْدَ أَحْمَدَ وَأَبِي يَعْلَى مَرْفُوعًا: «تَخْرُجُ نَارٌ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ حَضْرَمَوْتٍ فَتَسُوقُ النَّاسَ». الْحَدِيثُ. وَفِيهِ «فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ». وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ». قُلْتُ: وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ فِي مَسَائِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ لَمَّا أَسْلَمَ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَافِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ». وَقَدْ قَدَّمْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ فِي: «بَابِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»، وَأَنَّهُ مَذْكُورٌ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عِنْدَ الْحَاكِمِ رَفَعَهُ: «تُبْعَثُ نَارٌ عَلَى أَهْلِ الْمَشْرِقِ فَتَحْشُرُهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ تَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا وَيَكُونُ لَهَا مَا سَقَطَ مِنْهُمْ وَتَخْلَفُ، تَسُوقُهُمْ سَوْقَ الْجَمَلِ الْكَسِيرِ». وَقَدْ أَشْكَلَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ. وَظَهَرَ لِي فِي وَجْهِ الْجَمْعِ أَنَّ كَوْنَهَا تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ لَا يُنَافِي حَشْرَهَا النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ خُرُوجِهَا مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ، فَإِذَا خَرَجَتْ انْتَشَرَتْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا. وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ» إِرَادَةُ تَعْمِيمِ الْحَشْرِ، لَا خُصُوصَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. أَوْ أَنَّهَا بَعْدَ الْإِنْتِشَارِ أَوَّلَ مَا تَحْشُرُ أَهْلَ الْمَشْرِقِ. وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ الْفِتْنِ دَائِمًا مِنَ الْمَشْرِقِ. وَأَمَّا جَعْلُ الْغَايَةِ إِلَى الْمَغْرِبِ فَلِأَنَّ الشَّامَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ مَغْرِبٌ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ النَّارُ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ كِنَايَةً عَنِ الْفِتْنِ الْمُنتَشِرَةِ الَّتِي أَثَارَتِ الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَالتَّهْبَتُ كَمَا تَلْتَهَبُ النَّارُ وَكَانَ ابْتِدَاؤُهَا مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ حَتَّى خَرِبَ مُعْظَمُهُ وَانْحَسَرَ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ إِلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَهُمَا مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ كَمَا شُوهِدَ ذَلِكَ مِرَارًا مِنْ



المُعُولِ مِنْ عَهْدِ جَنْكِيْزِ خَانَ وَمَنْ بَعْدَهُ. وَالْحَشْرُ الثَّلَاثُ: حَشْرُ الْأَمْوَاتِ مِنْ قُبُورِهِمْ وَغَيْرِهَا بَعْدَ الْبَعْثِ جَمِيعًا إِلَى الْمَوْقِفِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) والرَّابِعُ: حَشْرُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ. 20

نقلنا النَّصَّ كما ورد، على الرغم من طوله، ليس لأهميته التاريخية ولا الفكرية، وإنما لفهم آليات البناء العقلي التأسيسي، الذي مارسه العقول المسلمة على مرّ القرون، ولكشف طبيعة القضايا الفكرية التي انشغل بها العقل العربي المسلم، وأبعده عن المشاغل الاجتماعية والعلمية الحقيقية التي كان عليه الاضطلاع بها، في عصور القوة والتأسيس والبناء.

نلاحظ بعد ذلك أنّ أغلب المشاكل الخلافية وقعت أيضًا على مستوى الألفاظ والمصطلحات؛ فقد وقع الخلط مثلًا في شرح الروايات السابقة، بين المعنى اللغوي لمصطلح الحشر، الذي يفيد: «الجموع والسوق»، حيث يقال: حَشَرَ يَحْشُرُ بِالضَّمِّ، وَيَحْشِرُ بِالْكَسْرِ حَشْرًا، إِذَا جَمَعَ وَسَاقَ، وَمِنْهُ: يَوْمَ الْمَحْشَرِ بِكَسْرِ الشَّيْنِ وَيَفْتَحُ، أَي مَوْضِعُهُ. أَي الْحَشْرِ وَمَجْمَعُهُ، الَّذِي إِلَيْهِ يُحْشَرُ الْقَوْمُ. وكذلك إذا حُشِرُوا إِلَى بَلَدٍ أَوْ مُعَسَّكَرٍ، أَوْ نَحْوِهِ. 21

وبين معناه الاصطلاحي الغالب في القرآن: حيث أنّ يَوْمَ الْحَشْرِ هو يَوْمُ الْقِيَامَةِ. 22

أخذنا التعريفات كما وردت عند بعض اللغويين، دون خوض في مباحث الترادف والاشتراك أو الوجوه والنظائر. وقد ذهب القرطبي أيضًا إلى أنّ «الحشر أربعة: حَشْرَانِ فِي الدُّنْيَا وَحَشْرَانِ فِي الْآخِرَةِ». وهو قول لا أساس له، وخلط لا ميرر له. وقد أوضح ابن حجر ذلك حين ذهب إلى أنّ «الأول ليس حَشْرًا مُسْتَقْلَلًا. فَإِنَّ الْمُرَادَ حَشْرَ كُلِّ مَوْجُودٍ يَوْمَئِذٍ. وَالأَوَّلُ إِنَّمَا وَقَعَ لِفِرْقَةٍ مَخْصُوصَةٍ هِيَ فِرْقَةُ بَنِي النَّضِيرِ. وَقَدْ وَقَعَ نَظِيرُهُ مِرَارًا: تَخْرُجُ طَائِفَةٌ مِنْ بَلَدِهَا بِغَيْرِ إِخْتِيَارِهَا إِلَى جِهَةِ الشَّامِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي أُمَيَّةٍ أَوَّلَ مَا تَوَلَّى ابْنُ الزُّبَيْرِ الْخِلَافَةَ، فَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى جِهَةِ الشَّامِ، وَلَمْ يَعْذُ ذَلِكَ أَحَدًا حَشْرًا». 23

ليس لمعنى الشرق والغرب معناهما المحددان للاتجاه الجغرافي المعتاد بالنسبة إلى القطب الشمالي. فقد عدّ ابن حجر مصر والشام في الغرب. وهذا لا يستقيم من أيّ وجه، إلا بتعميم كبير انطلاقًا من أنّهما في غرب عدن. هذه النار التي تحشر الناس عند ابن حجر هي: «إِبْتِدَاءُ الْفِتَنِ دَائِمًا مِنَ الْمَشْرِقِ»، «وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ النَّارُ فِي حَدِيثِ أَنْسِ كِنَايَةً عَنِ الْفِتَنِ الْمُتَنَشِّرَةِ»؛ فإمكانية اعتبارها كذلك، يكفي لإخراجها من أسرار الساعة العشرة، المرتبطة زمنيًا بيوم القيامة. أمّا تضييق الحشر في محيط جغرافي بين اليمن أو عدن، وسوريا الشام، فيخرجه منطقيًا وشرعيًا عن أسرار الساعة كلها، لا عن العشرة فحسب.

20- ابن حجر، فتح الباري، 18/366. سبق ذكره.

21- مرتضى، الزبيدي (ت: 1205هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، القاهرة، 1989م. 11/20

22- المرجع السابق، 11/23

23- ابن حجر، فتح الباري، 11/379. سبق ذكره.

أن يكون مفهوم الكون والأرض مقتصرًا عند المشاركة قديمًا، على موطنهم، وعلى العراق بالذات، لأنه مركز الخلافة لديهم، فهذه مرجعية معلومة. أما أن يتخذ المغاربة أمثال القرطبي وابن حزم وابن العربي تلك المرجعية، فإنما هي من باب المتابعة والتقليد. فالنصان السابقان، وما شابههما من الروايات، لا يتحدثان عن يوم القيامة، نظرًا لطول السفر أو الحشر، إذ ورد فيها أن: «النار ثقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتُمسي معهم حيث أمسوا». فاستقراء الآيات القرآنية، يكشف أنه بعيد عن منطق الحشر القرآني، الذي نختار له بعض الآيات في هذا السياق: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ، 38، الأنعام،). (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، 51، الأنعام،). (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، 128، الأنعام،). (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ، 45، يونس).

طلوع الشمس من مغربها

قال الشيخ ابن عاشور في طلوع الشمس من مغربها: «حين تؤذن بانقراض نظام العالم الدنيوي». والواقع أنّ طلوع الشمس من مغربها لا «يؤذن»، ولكنه داخل ضمن ما يحدث يوم القيامة. وهذا إما أن يكون تعبيرًا مجازيًا إذ في ذلك اليوم: (يَوْمَ تَرَوْنها تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ، 2، الحج) و(زلزلت الأرض زلزالها، 1، الزلزلة) أي يفقد كل حي على وجه الأرض حينها وجد، كل توازن وكل وعي وكل مرجعية حتى «يرى» الناس أي يخيل إليهم، أو يعتقدون، أنّ الشمس تطلع من مغربها. وإما أن يكون حقيقة ضمن القوانين الإلهية المسيرة للكون. وفي هذا الشأن توجد نظرية علمية مفادها أنّ سرعة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس في تباطؤ لا يشعر به من فوقها ولا يؤثر في سير الحياة، إلا أنه «بعد ملايين السنين» تنقلب الجاذبية من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، وعندها يعكس دوران الأرض فتكون الشمس تطلع من المغرب. ولكن هذا أيضًا إن حدث فإنه يدخل ضمن يوم القيامة لا قبله²⁴.

فإن صحَّ أنّ الرسول ذكر «طلوع الشمس من مغربها» فلا يكون ذلك إلا مرتبطًا بيوم القيامة، وعندئذ يكون طلوع الشمس من مغربها «بعض آيات ربك» وفاضلاً بين قبول الإيمان والتوبة. ومع ذلك فإن القول بطلوع الشمس من المغرب، مع أنه لم يرد في القرآن، يتعارض مع بعض الآيات، مثل قوله تعالى: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ،

24- Vincent Isoz, Théorie Des Cordes, Paris, 2010, page: 18

69، الزّمر)، فلا ضوء يومئذ ولا نور إلا نور الله عزّ وجلّ. فلا الشّمس تطلع لأنّها قد كوّرت، من قبل، ولا القمر يعكس نوره، لأنّه خسّف، أي أظلم وذهب هذا النور.

الدخان

وردت هذه الكلمة مرّتين في القرآن: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، 11، فصلت)، فهي تتعلّق ببداية خلق الكون، وهي ضمن: «يوم يأتي بعض آيات ربّك». فقد تبيّن للعلماء والباحثين أنّ السّماء أي الفضاء كانت دخاناً أي مادّة غازيّة. (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، 10، الدخان).

هذه الآية فيها الانتظار: «ارتقب» ولكنّ الخطاب موجّه إلى واحد، خلافاً لفعل «انتظروا». فهنا ورد كما ورد من قبل «انتظر». والمخاطب هو الرّسول. فما هذا «الدخان»؟.

عرض علينا الطّبري في تفسيره: جامع البيان في تأويل القرآن، موقفاً يستحقّ التوقّف عنده: «عن مسروق قال: دخلنا المسجد فإذا رجل يقصّ على أصحابه. ويقول: (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ)، تدرّون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ أسمع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين منه شبه الزّكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له وكان مضطجعاً ففرع فقعد، فقال: سأحدّثكم عن ذلك. إنّ قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتّى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السّماء فلا يرون إلاّ الدّخان».²⁵

تفسير القاصّ وتفسير ابن مسعود يتساويان في كونهما رأيين شخصيين، لا يستندان على دليل شرعيّ من القرآن، ولم يثبت أنّ الرّسول دعا على قومه بالشرّ، بل المشهور أنّه فعل العكس.²⁶

في رواية أخرى ذكرها الطّبري في تفسيره قال: «عن عاصم قال: شهدت جنازة فيها زيد بن عليّ فأنشأ يحدث يومئذ فقال: إنّ الدّخان يجيء قبل يوم القيامة فيأخذ بأنف المؤمن الزّكام، ويأخذ بمسامع الكافر. قال: قلت رحمك الله، إنّ صاحبنا عبد الله [ابن مسعود] قد قال غير هذا، قال إنّ الدّخان قد مضى وقرأ هذه الآية:

25- محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ) جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرّسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ/ 2000م، عدد الأجزاء: 24، 13/22

26- لما قيل له: يا رسول الله، ادع على تقيف، قال: اللهم اهد تقيفاً وأت بهم مسلمين. انظر: شرح الزّرقاني على المواهب اللدنيّة بالمنح المحمّدية، دار الكتب العلميّة، الطبعة: الأولى 1417هـ/1996م، 4/18. أمّا عن قبيلة دوس: - 1640- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال: قَدِمَ طِفِيلٌ بِنُ عَمْرُو الدُّوسِيِّ، وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ، وَأَبَتْ فَأَذَعِ اللهُ عَلَيْهَا فَيْقِيلَ: هَلَكْتُ دَوْسٌ قَالَ: اللَّهُمَّ اهد دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ. أخرجه البخاري في: 56 كتاب الجهاد: 100 باب الدعاء للمشرّكين بالهدى ليتألّفهم. انظر: محمّد فؤاد بن عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشّيخان، دار إحياء الكتب العربيّة، محمد الحلبي (ب.ت). 3/177

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ) قال: أصاب الناس جهد حتى جعل الرجل يرى ما بينه وبين السماء دخاناً فذلك قوله (فَارْتَقِبْ)»²⁷.

لم نجد ذكراً لهذه الرواية في كتب الحديث المعتبرة، إلا عند النسائي (214-303هـ). ويبدو أن الطبري (224-310هـ) أخذها عنه، فقد كانا متعاصرين، على الرغم من أن الأول توفي في الرملة في فلسطين، والثاني توفي في بغداد. نسب الطبري هذا القول إلى أبي العالية: «عن عوف قال: سمعت أبا العالية يقول: إنَّ الدخان قد مضى. وعن إبراهيم قال: مضى الدخان لسنين أصابتهم»²⁸.

ويؤكد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أن هذا الدخان قد مضى، لأنه حصل فعلياً بعد الهجرة مباشرة: «هذا الدخان قد حصل بعد الهجرة لا محالة، والأصح أن هذا الدخان عُني به ما أصاب المشركين من سني القحط بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. والأصح في ذلك حديث عبد الله بن مسعود في صحيح البخاري عن مسلم وأبي الضحى عن مسروق. إنَّ عبد الله قال مَضَى خُمس: الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام. والذي يُستخلص من الروايات أن هذا الجوع حلَّ بقريش بُعيد الهجرة»²⁹.

لا ندري حقاً إن كان هذا الجوع قد حلَّ بقريش أم لم يحلَّ، ولكن وجدنا أن قاصاً مجهولاً يقول: الدخان يأتي يوم القيامة، وزيد بن عليّ يؤكد أنه يجيء قبل يوم القيامة. ووجدنا جماعة من الصحابة والتابعين يؤكدون أن الدخان قد مضى. فكيف يكون من أشرط الساعة المستقبلية، إذا كان قد مضى وانقضى؟.

27- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 22/15. سبق ذكره.

28- المرجع السابق، 22/16.

29- التحرير والتنوير، 287/25. سبق ذكره.

الخلاصة:

ظهر من استقراء آيات القرآن أنّه لا وجود لأشراط وعلامات، تحصل قبل يوم القيامة، بل إنّ هذا اليوم يأتي بغتة، أمّا الروايات التي عرضناها وقارنا بينها، فقد كشفت لنا أنّ الأدبيات الإسلاميّة جعلت من التصرّفات البشريّة العاديّة بعض علامات السّاعة. وتبيّن من تلك الروايات ومن أقوال المفسّرين والمحدّثين، أنّ الفكر الديني طغى عليه مفهوم أشراط السّاعة وانتظار علاماتها، فكلّ تغيّر حدث في المجتمع الإسلاميّ سواء بالتطوّر والتقدّم العلميّ والازدهار الاقتصاديّ، أو نقيض ذلك، بسيطرة الجهل والفقر وانتشار المجاعات والأوبئة، اعتبر من علامات السّاعة.

ويظهر أنّها كانت إحدى المشاجب التي علّق عليها الرواة والمفسّرون، كلّ ما لا يعجبهم هم شخصياً، وكلّ ما اعتبروه مخالفاً في نظرهم للمجتمع الفاضل الذي لم يتجاوز أفكارهم وأوهامهم الشّخصيّة، لذلك فإنّ الحديث عن أشراط السّاعة في المطلق وبصفة مبهمّة، غطّى على الفهم الجوهريّ للقرآن، وجعل تلك العلامات لا تحصى عدداً، بحيث جاز لكلّ واحد أن يدخل فيها ما شاء، إمّا بفساد التأويل أو باعتماد نصوص موضوعة، أو بإضافات شخصيّة. وبالنظر في ثلاثة أمثلة منها، اتّضح أنّها فضلاً عن التناقض والتضارب، إنّما عبّرت عن سقف معرفي محدود، ومصطلحات متأثرة بظروف اقتصاديّة واجتماعيّة، غطّت فترة القرنين الثّالث والرّابع الهجريين، في تفاعل كبير مع الروافد اليهوديّة والمسيحيّة والفارسيّة والهنديّة.

وإن عدنا إلى مفهوم أشراط السّاعة المعلنة حقيقة عن يوم القيامة، وارتباط ظهورها بقيام السّاعة الفعليّ، كما ورد في القرآن الكريم، فإننا لا نجد شيئاً البتّة في العهد النّبويّ الأوّل، فلم تظهر تلك المقولات الانتظاريّة في جيل الصّحابة والتّابعين الأوائل. ويبدو أنّ كثرة الروايات المتضاربة والإسرائيليات المتغلّطة، نتجت أيضاً عن اختلاف منهج الاستقراء والتّأويل عند المحدّثين والمفسّرين والأصوليين، والتّأثر بغلبة الاتّجاه النّقليّ والرّوائي، الواردة في الروايات والسّنن والمسانيد. وهذا الاختلاف نفسه، ينفي أن تكون تلك الروايات أحاديث نبويّة، إذ من المحال أن يصدر الشكّ أو التناقض من الرّسول في إخباره بالغيّب. لذلك يذهل المسلم ممّا في الروايات من تصوير دقيق ومجسّد لذلك الغيب المطلق. وكثيراً ما لفق المصنّف ما رآه أتمّ وأغرب حسب رؤياه الشّخصيّة. فمنهم من حشر بعض العبارات أو الألفاظ القرآنيّة في نصّ لا يستقيم لغويّاً وأدبيّاً، ومنهم من جمع أكثر ما يمكن من أشراط السّاعة، في نصّ واحد، وكأنّ الرّسول الكريم قضى الأيام والأشهر لا حديث له، إلّا عن قيام السّاعة.

وجدنا مسافة عظيمة، بين المنهج العقليّ والحجاج المنطقيّ المتوفّر في القرآن الكريم، وبين الفكر الأخروريّ أو الإسكاتولوجيا الإسلاميّة، السّائدة في كتب المرويّات، في المرتكزات والغايات والمقاصد. وإنّ المنحى الضّبابيّ المبتوث في كثير من تلك الروايات والتّفاسير وشروحها، وما دُبج فيها قديماً، وحديثاً، إنّما عبّر عن خيال المسلمين، وتغذى بأفكار الأقدمين في أدب الانتظار والنّهيات، وكان الأولى تسميته بالماسيحيّة الإسلاميّة، لأنّه اعتمد كثيراً على روافد التّراث اليهودي المسيحي.

قائمة المصادر والمراجع:

(أ) العربية:

- ناصر الدّين الألباني، السلسلة الصّحيحة، مكتبة المعارف، الرّياض، 1418هـ/1998م.
- سنن الترمذي، دار إحياء التّراث العربي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، 1988م.
- الثّعالبى، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض، دار إحياء التّراث العربي، الطبعة: الأولى، بيروت، 1418هـ.
- بسّام الجمل، ليلة القدر في المتخيل الإسلامي، مؤسسة القدموس للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، دمشق، 2007م.
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ/1959م.
- ابن أبي حاتم الرازي (240-327هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة الباز، م. ع. س. الطبعة الثالثة، 1419هـ/1998م.
- الرّازي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، 1421هـ/2000م.
- مرتضى الزّبّيدي (ت: 1205هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، القاهرة، 1989م.
- ابن جرير الطبري (ت: 310هـ) جامع البيان في تأويل القرآن، المحقّق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ/2000م.
- محمّد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتّفق عليه الشّيخان، دار إحياء الكتب العربيّة القاهرة (ب. ت).
- ابن عطية (ت: 542هـ) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقّق: عبد السّلام عبد الشّافي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، تحقيق: عمران أحمد، الطّبعة الأولى، عمّان، 1404هـ، 1983م.
- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهوديّة والصّهيونية، دار الشّروق، مصر، 1999م.
- علي عبد الواحد وافي، اليهود واليهوديّة، دار نهضة مصر، الطبعة السادسة القاهرة، يناير، 2008

(ب) الأجنبيّة:

- Guy Robert, Mots et dictionnaires, vol. 108, tome. 5. Les belles lettres, Paris 1970.
- Henri Desroche. Dieux d>hommes. Dictionnaire des messianismes et des millénarismes de l>ère chrétienne, paris ,1969.
- Vincent Isoz , Théorie Des Cordes, Paris, 2010.

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مُهْمِنُون بِلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط - أكادال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com